ككتب العالم والمؤرخ الفرنسي الشهير الدكتور (غوستاف لوبون) يقول : (حينما نلاحظ المساجد والمدارس والخانات الإسلامية نفهم كم امتزج الدين ـ في الإسلام ـ مع الحضارة بحيث لا يمكن تفكيك احدهما عن الآخر .

والذوق الفني لأية امة انما يفهم من تلك التغييرات الاساسية التي يدخلونها على ما يقتبسونه بسرعة ومن الصبغة التي يصبغونها به من صبغتهم وكانهم يصنعون منه شيئاً مستقلاً . وحسب الشواهد التي بأيدينا لم تتمكن أية امة حتى الآن ان تتقدم على المسلمين من هذه الجهة ، كما يمكن إدراك قوة إبداعهم وابتكارهم جيداً من مشاهدة الابنية القديمة ، خير نموذج لذلك هو مسجد(قرطبة) الذي بني على المعمارية الوطنية الاندلسية ولكنهم أضافوا اساليب حديثة ايضاً .

والنحت في الخشب او العاج والصدف من الصنائع التي طورها المسلمون كثيراً ، فالمساجد القديمة والابواب الجميلة والمنابر المنحوتة والمرصعة بالخاتم ، والسقوف الخشبية المنحوتة والمنقوشة على الخشب ، والشبابيك المتشابكة والمتداخلة ، كل ذلك ذكريات اثرت من المسلمين ، ولا يمكن صنعها اليوم بتكاليف كثيرة . إنهم كانت لهم معلومات وخبرة كافية في النحت على العاج ، كما تشهد لذلك المنضدة في كنيسة (سنتي زيدوليئون) والصندوق العاجي الذي صنعوه في القرن الحادي عشر الميلادي لملك (اشيبيلية) وكذلك صندوق العاج الذي في كنيسة (بايو) والمصنوع في القرن الثاني عشر الميلادي وهو منبت بالفضة والذهب ، والظاهر أنه مما أتى به الصليبيون أيام الحروب الصليبية من مصر .

والعجب جداً هو أنهم يصنعون أشياء ظريفة جداً ولكن بالآت ساذجة بل وخشنة ، وهذا هو خير شاهد على فطنتهم وذوقهم الفني فالآت الزينة والمجوهرات المرصعة التي تصنع اليوم في القاهرة ودمشق لا يوجد في اوربا أي صائغ يتمكن ان يقوم بنحت في خشب او الترصع فيه او من الخزف او الذهب والفضة بنفس الآلات الساذجة القديمة التي كانوا يستعملونها في الشرق الاوسط .

وقد تقدم المسلمون في فن الفسيفساء والكاشاني بخطوات سريعة كما في المعمارية ، بحيث لم يستطع احد بعدهم ان يحشر نفسه في صفوفهم . في أوائل القرن العاشر الميلادي بدأ المسلمون في الاندلس باستعمال الكاشاني الفسيفساء وأسسوا لذلك مصنعاً ومعملاً كان يصدر الكاشاني منه الى كثير من أنحاء العالم .

وقد رأيت أنا (لوبون) الكاشاني و الفسيفساء من القرن الثالث عشر الميلادي الذي رُكب بشكل لا مثيل له في قصر الحمراء فرأيتها كأنها جواهر مشرقة ، وهي كالكاشاني الإيطالي الذي عرف فيما بعد باسم (مجالكا) مشرق لماع ، وقد تعلم الإيطاليون صناعة الكاشاني من المسلمين .

ومن ذكريات المسلمين في صناعة الكاشاني تلك المزهرية الشهيرة في قصر الحمراء ، هذه المزهرية طولها متر ونصف المتر وفيها بدائع جميلة . وكتب الدكتور (ماكس ميرهوف) : (تظهر اليوم شيئاً فشيئاً ذخائر علوم الامم الإسلامية ويفيد منها الجميع ، والمكتشف في هذه السنين الاخيرة قد القى ضوءً جديداً على التاريخ القديم لعلوم العالم الإسلامي ، ولكنها ليست كافية بعد قطعاً وسيدرك العالم في المستقبل أهمية العلوم الإسلامية .

ان علوم المسلمين العرب أضاءت الليالي المظلمة في اوربا القرون الوسطى كالبدر الطالع ولما ظهرت العلوم الجديدة فقد القمر إشراقة ضوئه ، ولكنه هو القمر الذي هدانا في تلك الليالي المظلمة حتى بلغ بنا اليوم الى ها هنا ، بل نستطيع ان نقول ان أضواءه لا زالت معنا) .

وكتب (جان برندترند) أُستاذ جامعة كامبريج يقول : (حينما كانت اوربا ترزح بالبؤس والتعاسة والشقاء المادي والمعنوي ، كان المسلمون في إسبانيا قد احدثوا حضارة عظمى بنظام اقتصادي رتيب . ان اسبانيا المسلمة لعبت دوراً مهما في نشأة الصناعات والعلوم والفلسفة والسعر وتطورها ، وفي القرن الثالث عشر بلغ الحال الى ان اثر في اكبر العلماء والمفكرين في اوربا مثل (دانته) و(توماس اكيناس) وعليه فينبغي ان نسمى اسبانيا حاملة مشعل الحضارة الاوربية) .

وكتب العالم الإنجليزي (جمبر) يقول : (حقاً ان القلم يعجز عن بيان ما جاء به المسلمون من الآداب والمراسم الإنسانية ومن سعادة الحياة ، وكم سببوا في تربية الاوربيين وتطورهم .

لو لم يكن المسلمون ينزلون بقيادة (طارق بن زياد) في جبل الطارق سنة 711 م ومن هناك لم ينطلقوا الى أراضي اوربا ، لكان يعلم مدى ما كنا نخسر نحن شعوب اوربا وكم كنا نتخلف عن التقدم القائم اليوم) .

وكتب العالم الإنجليزي (بوجولد) يقول : (ان الجامعات الاسلامية في بغداد والاندلس ، كانت ترحب بالطلاب الاجانب من اليهود والنصارى ،

وكانت تدفع مصارفهم من بيت المال وكانوا يحترمونهم ويكرمونهم ، فكان مئات من الشباب الاوربي يفيدون من هذه الحرية والمساعدات ويذهبون لطلب العلوم الى تلك المراكز العلمية الإسلامية) .

وكتب المؤرخ الشهير الامريكي (درابر) يقول : (كان للعلماء المسلمين يد طولى في اكثر العلوم القديمة والحديثة ، وكانت لهم خبرة ومهارة تامة في علوم الميكانيك ومعادلات السوائل ، وعلم الحركات الاولية (الديناميك) وحل المعاملات الكيمياوية والفيزياء والتقطير في الجامعات الإسلامية كانت تدرس مختلف العلوم من الفيزياء والكيمياء والهيئة والفلك الى دروس الزراعة والطب والاخلاق ، وكان فيها أساتذة كبار ، ولم تكن يومئذ أي جامعة كالجامعة الإسلامية تشتمل على ستة آلاف طالب) .

ويقول (فيليب حتي) : (كان في قرطبة طرق حجرية معبدة تستضئ من أضواء الدور على جانبي الطرق ، بينما لم يكن للندن ولا باريس طرق كهذه حتى بعد سبعة قرون ، بل الى قرون بعد ذلك كان إذا تجرأ فرنسي وخرج من داره في يوم ممطر كان عليه ان يطمس حتى كميه في الطين والوحل .

وحينما كانت جامعة اكسفورد ترى ان الاستحمام من مراسيم عبدة الاوثان ، كانت أجيال متعاقبة من مسلمي قرطبة تتمتع بأجمل الحمامات هناك) .

وكتب (برولت) في كتاب (صنع الإنسان) يقول : (لاريب أننا بإمكاننا ان نرد أي فرع من فروع العلوم والفنون الى أُصول من عوامل الثقافة الإسلامية ... بل ان العلم (القديم) كان هدية منحها المسلمون العرب الى العلم الحديث ... وإنما تظهر هذه العوامل الثقافية الإسلامية حينما نشاهد آثارها في ظهور هذه القوة العظمى التي جهزت العالم بقوى غريبة ، تلك القوة التي تمكن في روح البحث العلمي والعلوم الطبيعية . والذي يدين به علمنا الحديث لعلوم العرب المسلمين ليست اكتشافات مفاجئة وأفكار ناشئة متطفلة ، بل الموضوع أعلى مما نتصوره نحن هكذا ، فان العلم الحديث يجد نفسه رهيناً في وجوده لعلوم العرب المسلمين نحن نتذكر كيف ان علومنا كانت فاقدة الصلة بالعلم القديم بل لم يكن هناك علم أصلاً .

ان ما ندرسه نحن باسم العلم إنما وجد في اوربا على أثر الاساليب الحديثة التي ظهرت على صعيد التجارب والمشاهدات والتقديرات الدقيقة ، وقد

تطورت العلوم الرياضية بما لم يعهد في اليونان القديم ... وهذه الروح الثابة وهذه الاساليب العلمية إنما جاء بها العرب المسلمون هدية الى اوربا) .

أما لو كنا ورثة حضارة مشرقة إسلامية عظمى فلماذا نحن اليوم نعيش هكذا ؟ ماذا حدث فأطاح بنا مقام قيادة العالم ؟ وضعت حضارتنا وعلومنا وقوانا السياسية وتوقفت مسيرة تقدمنا ؟ وبدلنا مكاننا مع الغربيين . فأصبحنا محتاجين إليهم في العلوم والصناعات وهم مستغنون عنا ؟! ما الذي سبب في ان يعيش المسلمون اليوم بهذه الذلة مع كل ما كان لهم من سوابق مشرقة في شرق الارض وغربها ؟! وللإجابة نقول : ان المسلمين يجدوا رونقهم بطبول فارغة وتجميل الصور الظاهرية ، بل ان كيفية التربية الإسلامية كانت بحيث أحدث هذا التطور الغريب ، والمجتمع الذي كان بعيداً عن كل نظام اجتماعي ، والذي كان كل قواه تصرف في سبيل الخلافات والحروب ، أصبح باتحاد كلمة ذا عظمة ووحدة ، وأصبحوا في فترة قصيرة قادة الأُمم الكبرى ، وأطلت حكومتهم وقدرتهم على ساير الدول المقتدرة . ان نظام أية أُمة قوية بحاجة الى قواعد أساسية محكمة وأُصول وآداب و أخلاق وأنظمة تامة كاملة ، كي تتمكن من البقاء والدوام والاستمرار والاطراد والتطور والتقدم . والإسلام لم يمنح أُمة القدرة والقوة بالاسلحة والاعتدة والمدافع والبابات ، وانما بدأ بدعم الافكار على واقع الصراط المستقيم ، ونفث في المجتمع روح الاخوة والالفة والعدالة . وقد أثبت التاريخ بوضوح أنه متى ما فارق المسلمون روح التعاليم السماوية أحاطت بهم أمواج الذلة والتاسعة والشقاء ان المسلمين الذين أسسوا في الماضي قاعدة حضارة عظيمة مدهشة كانوا أقرب الى روح الإسلام ، وإنما افتقدت حركة الحياة الفردية والاجتماعية للدول الإسلامية مسيرتها نحو التكامل ، واتجهت شمس الحضارة الإسلامية نحو الافول ، حينما افتقد التوازن بين العلم والفكر ، وبين المادة والروح ، وحينما سقطت راية السعي والنشاط والجهاد من أيدي المسلمين وحضارتهم في أنحاء العالم ، من دون ان يكون لهم في كتبهم الدينية وأحكامهم المذهبية أي أمر أو وصية بهذا الصدد . وفي صعيد الصفات والمزايا الاخلاقية ايضاً تغيرت أوضاع المسلمين و أحوالهم ، فجانبوا الصفاء في الإخاء والصدق في القول والفعل والصحة في الاعمال وسائر المزايا الاخلاقية واحدة بعد الاخرى ، وحينما تجاوز المسلمين هذه الحدود ودعوا دينهم الإسلام ! فاتجهوا يتخطبون في طرق الضلال والضياع عن البرنامج السماوي المقدس الذي كان منذ أول يوم أعلن فيه منزها عن أي ضلال وجهل وبؤس وشفاء .

ان لم يكن المسلمون يبتعدون عن واقع الإسلام الاصيل ، لم يكن يظهر في جمعهم الموحد ذلك الشقاق العميق ، بل كانوا يتوفقون لفتح جميع بلاد الارض ، ولم يكن يحكم اليوم في العالم دين الإسلام

كتب (لاكاس) وهو أحد أصحاب نابليون في جزيرة سنت هيلين يقول : (حينما كان نابليون يعيش في مصر كان يبدي استغرابه قائلاً : كيف توفق الرجال التاريخيين من المسلمين ان يطأوا هذه الدول الاجنبية عنهم فيجعلونها تحت نفوذهم وتصرفهم ؟ وكان هذا المعنى عاملاً سبب حسن ظنه بالإسلام فكان يقول ، إني أراني سأتقبل الإسلام .

واليوم قد أُبعد الإسلام كلياً تقريباً عن ميادين النظم الاجتماعية والسياسية القانونية والتشريعية ، وعن ساحة حياة المسلمين أيضاً .

وبنظره جذرية وأساسية نقول : ان المجتمع الإسلامي يختلف عن هذا المجتمع القائم اختلافاً كثيراً ، فان كل مجتمع ينبع نظماً وقرارات وقوانين غير إسلامية هو مجتمع غير إسلامي .

والخلاصة : ان المجتمع الإسلامي في الحال الحاضر لا يتملك أفكاراً إسلامية ولا أخلاقاً إسلامية ، وان أي فرع من فروع حضارتهم لم يبن وفقاً للاصول الإسلامية الصحيحة . والخلاصة مرة أُخرى : أنه لم يبق بين إسلامهم وعملهم أية علاقة او ارتباط . وعليه فيجب ان نحمل هذه الهزيمة والنكسة الحاضرة على حساب المسلمين والإسلام . والسلام !

ان المسلمين اليوم من أجل ان يُسهموا في الثورة الحضارية في العالم بصورة مؤثرة ، عليهم ان يدركوا وضع العالم ، وان يقيموا موقعهم فيه ومن اجل ان يجبروا ما لحق بهم من التأخر وان يقوموا باصلاح عام لاوضاعهم عليهم ان يعيدوا النظر في رسالتهم المعنوية وفي رسالتهم المادية معاً لكي يصلوا الى نتائج مفيدة مثمرة . والخلاصة مرة أُخرى : ما لم يعد المسلمون الى المنبع العذب للحضارة الإسلامية والمصدر الحقيقي لتعاليم الإسلام القيمة ، فانهم لن يستعيدوا عظمتهم السابقة ، ولا يزالون متخلفين . فعلى المسلمين ان يعودوا الى الإسلام الاصيل والكامل الشامل لامور الدنيا والآخرة ، وان يوثقوا علاقتهم باسلوب الفكر الإسلامي ، وان يحافظوا على كرامة وحرمة العهد الذي قطعوه لله على أنفسهم بانتمائهم الى الإسلام ، فهذا هو السبيل الذي بإمكانه ان يعود بالمسلمين الى ذلك الشرف والعظمة السابقة .

نحن والغرب

يغزونا الفكر الغربي في هذا العصر شرو غزو، ويدخل الى وعينا بشتى السبل. فيحل محل الفكر الاسلامي العريق بعد ان يقحمه، لايضعف في الفكر الاسلامي، بل يضعف فينا. سببه جهلنا بالاسلام كنظام فكري، وقلة وعينا الحضاري. الا ان هذا الفكر الغربي الذي يحذبنا مريض فاسد رغم سعة انتشاره في العالم. تعالوا نستعرضه معاً، ونتبين الحرم الذي ترتكبه الأمة الاسلامية كل يوم بقذفها بأبنائها الى الغرب ليستقوا منه العلوم وأسباب الحضارة، فيعرضون أدمغتهم للغسل ويصبحون للغرب الثقافي ان لم يكن للغرب السياسي، (كاريكاتورات) وأتباعاً مخربين للوعي الاسلامي داخل الأمة.

تقوم العلاقات الانسانية في العالم الغربي على اساس واحد هو الشك كمذهب عام. يقول هذا المذهب:

1- لاشيء يعرف حقيقة سوى الظواهر الطبيعية وفي العلاقات الانسانية، الظاهرة الطبيعية هي الرغبة:

2- الظواهر الأخلاقية لا تعرف حقيقة. فهي دائماً وأبداً مشكوك فيها لا يعرف فيها شر حق ولا خير حق.

3- لا يجوز لأنسان ان يدعي ان سلوكا ما خير من سلوك آخر الا اذا ادى ذلك السلوك الى اشباع رغبة من رغباته هو دون الاخرين.

يستنتج الغرب من هذه المبادئ الثلاثة ان العلاقة بين الانسان والانسان يجب ان تبنى على احترام رغبات الفرد. فهي وحدها حقيقة. ويعتقد انه لا جدال في الذوق، ولا جدال في الاخلاق، ولا في سلوك الفرد والجماعة، لان هذه الحالات كلها لا تعرف حقيقة فيها. فكل دعوة إدعاء، وكل اقناع غسل دماغ، وكل سلوك اجتماعي قهر وسيطرة، ولكل انسان ما رأى وما رغب بدون حساب او عتاب. فالرغبة لا تضبط بمبدأ، بل تسيطر عليها رغبة اخرى، سواء من الشخص ذاته او من الاشخاص الآخرين، وحياة الفرد حرب دائمة الرحى يشنها الانسان ضد نفسه، وضد ذويه، وضد قومه. كما أن حياة الجماعة حرب يشنها الحاكم ضد المحكومين. وتشنها الجماعة ضد الجماعات الاخرى.

دعمت مبدأ التشكك الاخلاقي وما استنتجه منه الفكر الغربي من مبادئ سلوكية، حركة كبرى عمرها الفا سنة، بل لعل هذه الحركة كانت هي مصدره. وهي على كل حال سبب نموه وازدهاره. هذه الحركة هي المسيحية. لقد باركت المسيحية مذهب الشك الاخلاقي ظنا منها بأنه يحقق أغراضها. قالت المسيحية على لسان بولس، وما زالت تردد على لسان كارل بارط وبول تيليش والمجمع الفاتيكاني الثاني: ان الانسان مخلوق ساقط بنيت جبلته على الاثم والعدوان والمنكر، لا أصل ولا جدوى من اجتهاده وعمله. فحياته كلها كتلة من الخطيئة والفجور، والمجتمع ليس الا ميدان الشيطان. أرادت المسيحية ان تبرهن على ألوهية المسيح فرأت انه يلزم للإقتناع بعملية التخليص التي قام به الاله بتجسمه في المسيح وصلبه: ان يكون الانسان عاجزاً عن تخليص نفسه بفعله. لذلك حطت من قدر الانسان ونفت الاخلاق من سلوكه. فاتفقت مع مبدأ الشك بأن سلوك الانسان لا حقيقة معنوية او قيمية فيه.

عرف الغرب ثلاثة أنظمة أقامها على اساس من مبدأ الشك:

الفوضوية، والليبرالية الانجلو سكسونية، والشيوعية. ما زالت الانظمة الثلاثة قائمة وان غيرت أثوابها من عصر الى عصر:

الفوضوية: قامت في أول عهدها تحت تأثير المسيحية المباشر. فالمسيحية ابت ان تشرع للسلوك الجماعي وتركته للشيطان قيصر، لأن الحياة الاجتماعية في نظرها، مقطوع منها. وأبت ان تشرع للسلوك الفردي: لأنه ميدان الرغبة، والرغبة شر في ذاتها. فلا رأى للمسيحية الا التنكر للرغبة ومحاربتها والانعزال عن الجماعة. وهذه هي الرهبانية التي ابتدعتها مثالاً للسلوك البشري. وترك السلوك الانساني بلا شريعة دعوة الى الفوضوية.

أما اليوم فالفوضوية المسيحية تقلصت والرهبانية تكاد تنقرض. الرهبان يتزوجون ويحششون، يرتعون ويلهون، يسعون ويرتزقون. والراهبات يلبسن الملابس الجذابة ويتحلين ويتزوجن ويخلفن. كلما تقدمت الحضارة الغربية في بلد مسيحي يزداد ابتعاداً عن الرهبانية.

حل محل الرهبانية حركة اخرى هي الوجودية. ابتداء من رمى الحياة الانسانية بالشر والاثم أكدت الوجودية ان لا أمل يرجى من حياة الانسان لانها لا خير فيها. بل هي مليئة بالألم والحزن والأسي وتنتهي بموت أكيد. وسعى الانسان لن يرى لأنه كله غرور. فالوجود مأزق يجب التخلص منه ولا خلاص الا بالارتماء في أحضان المسيح، الاله المخلص؛ ويبقى السلوك الفردي والجماعي بلا شريعة، وهي الفوضوية. والتسلسل منطقي: فاذا كان الدين خروجاً من مأزق الوجود، فلا حاجة للاعناء بالمأزق. ليذهب به قياصره الى حيث ألقت.

الليبرالية: ولدت عمليا داخل صراع الملكية البريطانية مع الشعب في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وولدت نظريا على يدى طوماس هوبزوجون ستيوارت مل وجون منذ قرنين. تقوم الليبرالية على الشك بان علاقة الانسان بالإنسان فيها حقيقة اخلاقية او قيمية. فابتداء منه، تعارض الليبرالية كل لامتداد لتأثير الانسان في الانسان الآخر. فالإنسان ذات تحيا في رغباتها، ولا يدخلها مؤثر الا هتكها. وكون الرغبة، او الطبيعة، الحقيقة الوحيدة، تأليه للرغبة لانه ينفى وجود الحقيقة المعنوية او العتموية التي هي وحدها القادرد على تطويع الحقيقة الطبيعة. فالموجود الذي لا وجود لغيره: اله في ملكوته.

لكن التناقض بين رغبات الانسان وغيره يؤدي الى القتل: والقتل انتهاء للذات الراغبة. اذا لا مانع من منع القتل، ويسمح لكل شيء دونه، أي دون العنف المادي الظاهر، ان يأخذ مجراه. فاستمرار النظام الذي لا يؤثر فيه إنسان على إنسان، واستمرار الإنسان نفسه، يتطلب حماية الانسان من أعدائه. فالمبرر الوحيد لإيجاد نظام وشريعة وحكم سياسي هو المحافظة على سلامة الفرد وحريته في اشباع رغباته. لذلك نشأت الليبرالية، ونشأت معها الدساتير ونظريات حقوق الانسان، درجات في تقييد الرعاة وشل تسلطهم على الرعايا.

أما الفرد، فاذا أثر فرد آخر في سلوكه فهذا تدخل، بل نقض لشخصية الموثر فيه. فالمبدأ الاساسي هو عدم شرعية التأثير. فالرغبة وحيدة، وكوحيدة في الوجود، هي الإله الذي يجب ان يحترم، اما التطبيق، فمراده المحافظة على حرية الفرد فقط. لذلك لا تدخل في حرية الفرد الا لمنعه من تحقيق رغبته بالعنف الظاهر؛ وان كان كل تغيير أكراه، الا ان هنالك أكراه بعنف ظاهر وأكراه خفي، ولا يجوز التشريع الا لمنع الظاهر فقط. ان تداخل رغبات الافراد في بعضها البعض يحتم تقيد التشريع. فكل من آنس في نفسه الرغبة للتأثير على الآخرين كان له ذلك بشرط ان لا يلجأ الى العنف الظاهر، والحكومة المثلي هي التي لاتحكم الا بالقليل الاقل اللازم، أي منع العنف - ولا تتدخل في تحقيق رغبات الافراد. وذلك ان الرغبات تنسب الى اصحابها فقط، فلا دعوة ولا سلوك ولا خير ولا شر تعرف حقيقته. الخير والشر متروكان للحكم الفردي.

وان سألت الليبرالية عن الجماعة، قالت: الجماعة كالفرد تماما، لها رغبات: هي المصالح السياسية والاقتصادية والعسكرية. وهي حقائق «يابسة» أي أولية لا سبيل لانكارها. وهي وحدها طبيعية وحقيقة. إن تضاربت مع حقيقة يابسة لأمة اخرى، كان لا مناص من أكراه الواحدة للأخرى. فاما ان يكون الاكراه عنيفاً - وهي الحرب - واما أن يكون غير عنيف - وهي المفاوضة.

فالقومية مبنية على هذا الأساس: أن رغبة القوم هي وحدها الحقيقة، لذلك يجب ان تشبع بأي ثمن، فتنافس الأفردا كتنافس الاقوام؛ كلاهما طبيعي. إن أدى الى عنف يجب ان تنتصر الجماعة على أعدائها فالحرب سنة، ولا تتجنب الا لنجاح سبيل اخر يحقق نفس الغرض - أي إشباع رغبة الأمة، بطريق غير ذي عنف - طريق التفاوض. لهذا لم يكن بد للحكومات الليبرالية من محاربة بعضها البعض، ومن استعمار من لا حول له ولا قوة من الأمم الاخرى.

ولم ينشأ عندهم أي فكر عن القانون الدولي اطلاقاً قبل جروشس في القرن السابع عشر. الا أن القانون نفسه له يوضع الا بعد الحرب العالمية الأولى. وها هي هيئة الأمم المتحدة نفسها عن عصرنا: تقوم أساساً على مبدأ منع العنف الظاهر، وتبيح اشباع الرغبات مهما كانت. فقط في الحقيبتين او الثلاثة الأخيرات، قامت هيئة الأمم باسداد بعض الخدمات في الثقافة والعناية بالأطفال والأغذية، لا على سبيل الفرض الواجب، بل المصلحة المشتركة القائمة على الرغبة. والرغبة ما زالت الا له الا وحد.

الشيوعية: تقوم الشيوعية، كما قامت الليبرالية الإنجلوسكسونية على مبدأ الشك، أي: تأليه الرغبات بجعلها الحقيقة الوحيدة، وبالتالي، باعتبارها الرغبات معياراً نهائياً لكل ما هو خير وشر. الا أنها تختلف عن الليبرالية بانها لا تعترف برغبات الفرد بقدر اعترافها برغبات الجماعة. والجماعة عندها، ليست القوم بل الطبقة. فالشيوعية نظام تجنيدي Requinentatonial بالضرورة لأن الرغبة الطبقة عندها أولوية كبرى، لاتنسق رغبات الأفراد معها بل تنقض وتنكر. لذلك كان تصور علاقة الانسان بالانسان في الشيوعية: ان العامل زميل العامل انى وجد، وأنهما مجندان لخوض حرب ضرورية مع طبقة الرأسماليين المتسلطة، وأن حالة الصراع هذه: حالة دائمة الى أن تبيد الطبقة الطبقة الاخرى:

النتائج:

أدى مذهب اشك الى نتائج طيبة وأخرى وخيمة.

أما الطيبة فثلاث:

الاولى: احترام الذات الانسانية وحمايتها من كل معتد. فالحق يجب ان يقال: وهو ان النظام الشك، حقق للانسان حقوقاً جليلة، وان كان تعريفهم للأنسان بالمواطن: أي بفرد القوم، لا الإنسانية عامة. يتمتع الفرد في البلاد الليبرالية بحرية كبيرة وتحترم الحكومة ذاته أشد الاحترام.

الثانية: ان تأليه الرغبات واحترام الذات شد في أواصر القربى بين المواطن والمواطن وحث وعيهما بضرورة اشباع رغباتهما على التعاون المنتج الفعال، سواء كان التعاون تطوعى كما يحدث بدافع القربى او أكراهي كما يحدث بدافع القومية الغاشمة او تجنيدي بداخل مصلحة الطب وذلك دائما يقصد الانقضاض معاً على فريستهما أي فريسة المواطنين حتى يقضيا عليها ويفترسانها ويشبعا رغباتهما.

الثالثة: تأليه الرغبات واحترام الذات جعل من المجتمع الغربي مجتمع نمور. لا يعتى النمر على النمر، بل على فريسته. فكلاهما موجهان الى الفريسة بطبيعة تأليه رغباتهما. فالفريسة الاولى هي الطبيعية. لذلك انقض الغربيون على الطبيعة انقضاضاً، ففكوا رموزها وطوعوها لخدمتهم بعد إذ سيطروا عليها، فالطبيعة في نظرهم عدو ضعيف، عددو تمكنوا من افتراسه. ومازال الغربيون ينظرون الى الطبيعة نظرة المتعطش، المتأهب، المفترس. وقد فجرت هذه النظرة ينابيع المعرفة الطبيعية، فنشأت العلوم وترعرت، ثم تقننوا في استغلال الطبيعة - وهو ما يعرف بالتقنية - وقد سبوا المسلمين في هذا المضمار سيقاً مقحماً.

هذه هي النتائج الطيبة: اما النتائج الخبيثة في ايضا ثلاث، تقابل النتائج الطيبة بل تضارعها:

اولا:

غلا الغرب في رعاية الذات الانسانية وحمايتها بأن الهها وجعلها وحدها الحقيقة، فأصبح اشباع رغباتها هو معيار الخير والشر.

صحيح ان هذا من جهة: هو تأليه الانسان ورفع شأنه. الا أنه من جهة أخرى: هو مسخ للإنسان باقصائه عن الله، وعن ملكوت القيم والأخلاق. فالقيم والاخلاق ايضا فطرة وطبيعة في الانسان دون ان تكون مادة كالجسم والحركة والرغبة. والله، سبحانه وتعالى: حق، موجود، فعال لما يريد. وكل من الله والقيمة واليجب ان يكون يعرف حقاً، يعرف يقيناً، يعرف إختباراً، وذلك بطريقين، طريق الوحي المنزل من السماء، وطريق التعقل.

فبنى هذا الملكوت من الحقائق، تصور الغربى نفسه: بأنه شبكة من الرغبات المتناقضة، المتصارعة، المتنافسة، الطاغية حينا والمطغى عليها حينا آخر، دون مبدأ او معيار يرجع اليه في حل خلافاتها. لذلك قسمة صراعها وتطاحنها على نفسه، فأصبح مارمزت اليه شخصية الدكتور فاوست المسرحية منازعاً عليه من قبل الخير والشر

دون أمل في حل او خلاص. Two Souls alas, dwell within أي روحان، ويالللخسارة، تقيمان في صدري. واقنع الرجل الغربي بأن مصيره كمصير آلهة الأغريق، وآلهة الألمان، لا شك سائر الى الهلاك. وكان هذا المصير المأساوي نفسه المادة الأولى لفنه في الرسم والنحت والأدب والموسيقي. وأصبحت التراجيديا او المأساة عنوانا له. وهذا المصير نفسه يناقض الأساس الذي يبنى عليه. فالرغبة لا يمكن ان ترغب عدمها.

ثانياً:

غلا الغرب هنا أيضا في تأكيد أو اصر القربى بين الجماعة، سواء أكانت جماعة القوم او جماعة الطبقة. فولى الولاء كله للجماعة واعتبرها قوماً او عنصرا لا يعلو على مصلحته شيء، وإن كان مبدأ الجماعة نفسه مبنى على مبدأ رغبة الفرد. فالغلو في القربى يتناقض الغلو في رغبة الفرد. ثم غلا الغرب أيضا في إقصاء علاقات الجماعة بالجماعات الأخرى عن ملكوت الله والقيم والأخلاق، وغلا في حصره الحقيقة في رغبة الجماعة، فكانت الحروب المستمرة نتيجة هذا الغلو واستعمار الأمم لبعضها البعض. وصراع الطبقات. كل هذا دون أي معيار مبدأ او معيار يعلو على رغبة الجماعة فتقاس به، أو تحل به مشكلات الأمم دون قتل او قهر.

عرف الغرب عصبيتين: عصبية القوم على الفرد وعصبية القوم على القوم. أدت الأولى الى انحسار الشخصية الفردية بضرورة تطبعها بطابع الجماعة الى ان اصبحت التربية عندهم لا معنى لها سوى التشبيه الاجتماعي الجماعة الى ان اصبحت التربية عندهم لا معنى لها سوى التشبيه الاجتماعي Socialization التثقف الاجتماعي Acculfuration التوحد الكيفي الاجتماعي Homogeuization التكامل الاجتماعي Adjustment.

وأصبح الشذوذ عن الجماعة شر وأن أصاب الفرد وأخطأت الجماعة. وأدت الثانية، أي عصبية القوم، الى استعمار الانسان لأخيه الانسان بالجملة، أي بالملايين. أين من يقيس العذاب الذي ابتلى به ملايين وأجيال من البشر على يد الاستعمار الغربي؟ فكلا العصبيتان كانت بلاء وخروجاً على الاخلاق والدين.

ثالثا:

غلا الغرب في استغلاله للطبيعة. فبالرغم من ازدهار العلوم الطبيعية على كافة انواعها وتقدم التقنية في خدمة الانسان، فان تأليه الرغبات ومنع العنف ضد الزملاء النمور أدى الى اغتصاب الانسان للطبيعة، أي الى استثمار الطبيعة وتطويع قواها لإشباع الرغبات دون وازع اخلاقي، دون معيار يعلو على الطبيعة والرغبات معاً ويخضعهما لقيمة وأوزانه. فكان تلويث الموارد الطبيعية ونهب الثروة الأرضية بلا حساب مما أدى بدوره الى قلب توازن الطبيعة في كثير من الحقول. ومن يدري حتى الآن ان هدد الغاز المحبوس في العلب المملوءة تحت الضغط، طبقة الأوزون في الجو مما سينتج داء السرطان في جلود البشر اجمع بتعرضهم لأشعة الشمس المكشوفة؟ ان هددت ومتى السيول الجرارة من الكيماويات التي تلقى بها الصناعة في البحار تكوين البلانكتون مما يؤدي بدوره الى انعدام الحياة في البحار وانعدام مصدر اكثر من نصف الأوكسجين المتوفر في العالم؟

اخترع الغرب علما جديداً Ecology علم التوازن الطبيعي ولكنه. وضع مقصدا آثماً لهذا العلم البرئ، هو: كيف يساعد الانسان في استغلاله لقوى الطبيعة. فالانسان الغربي مقمح على الاستغلال حتى بالعلم الذي وضعه هو لحمايته من الاستغلال. وهذا هو قمة التناقض.

ومع اننا لا ننكر المثالية التي يوحيها تقدم العلوم في اسعاد الانسان نحن نعيب الغرب على تنمية الجشع في الانسان الى درجة التبذير. وللجشع والتبذير نتائج غير نهب الطبيعة واختلال التوازن، تلك هي اختلاف التوازن في الانسان بين طبيعته المادية وطبيعته المعنوية. أليس مسخاً للإنسان ان تحدث الرجل الغربي عن القيم فيسألك عن الثمن؟ وتحدثه عن الآخرة، فلا يفقه لها معنى سوى ميزان الأرباح والخسائر الذي سيقدمه في نهاية السنة لمحصل ضريبة الدخل؟

ومع أننا لا ننكر الانجازات الهائلة التي حققها الغرب في تفجير طاقات بشرية هائلة كانت كامنة غير مستعملة وسيرها لإسعاده، نعيب عليه اشعال نيران الحروب والصراع الطبقي. فحروب الاستعمار شنت لفرض الاستعمار على الشعوب. وما زالت تشن للتخلص منه، لا تعرف لها نهاية. وحروب الطبقات شنت وما زالت الى ان تبيد الطبقة الواحدة الأخرى. وهي كلها قائمة على التناقض. والتناقض قائم على خطأ المبادئ الأساسية لنظرية العلاقات الانسانية.

فلا يغرنا ان تطبيق المبادئ الخاطئة انجز انجازات كبرى من مفاخرها المساواة بين الأفراد واخضاع السلطان السياسي لحكمة المحكومين وانتقال السلطة - الخادمة وليست المخدومة - من يد الى يد دون عنف مادي ظاهر: بل نعترف: بأن اسلامنا لم يحقق لنا خلال القرون الخمسة الماضية ما حققته هذه المبادئ الخاطئة. لكن ذلك لا يعود للاسلام ذاته بل لنقص في اسلام كل منا. على كل حال لا تغرنا انجازات الغرب لأننا نعرف: أن كل ما أقيم على الفساد هو فهو فاسد وان طال أجله. ومصير الحضارة الغربية المبنية على أساس الشك أصبح ظاهرا. الحضارة الغربية متصدعة، مقبلة على انهيار تام كما يقول عظماء مفكريها مثل (طوينبى) و(ماكنيل) و(فان لفين) لا لضعف في قوتها بل الفساد أساسها. وهذا (وليم ماكنيل) رئيس دائرة التاريخ في جامعة شيكاغو وابن العلامة اللاهوتي الشهير يقول في نهاية كتابه The Rise of The West ازدهار الحضارة الغربية: «ان الحضارة الغربية اليوم، وفي الطور الأخير من أطوار حياتها، لأشبه بالضبع الذي بلغ في فراسته وانتهاكه لكل ما هو معنوي، واعتدائه على تراث السلف، على كل مقدس ومحرم، لأشبه بالضبع الذي أغاض مخلبه في أمعائه فانتزعها من مكانها وأخذ يفترسها وبعضها ويلوكها بين فكيه بمنتهى البغض والغيظ والتشفى».

الاسلام والعلاقات الانسانية:

سؤال يواجهنا: والآن، ان يصلح لنا الغرب مثالا نقتدي به، فبماذا نقتدي؟

الجواب: نقتدي باسلامنا، الذي اقتدى به أسلافنا فسعدوا وأسعدوا. نقتدي لا بتطبيق المسلمين خلال قرون الوهن والتأخير، بل بتطبيق المسلمين في صدور الاسلام، في فجره وضحاه نقتدي بفحوى الاسلام، التي هي فوق نسبيتات كل زمان ومكان نقتدي بالتوحيد، أي بأن: لا اله الا الله، دينا وثقافة، شرعة ومنهاجا. نقتدي بالتوحيد قانوناً معرفياً وجمالياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وأخلاقياً.

فما هي المبادئ التي تتفرع من التوحيد والتي تقوم عليها العلاقات بين البشر؟

1- الظاهرة الطبيعية حقيقة لا تنكر قط. لكنهغا لست كل ما في الوجود. فالوجود ليس كله مادة محسوسة خاضعة لقوانين المعرفة الحسية: هنالك ملكوت واسع من الظواهر المعنوية. فالقيم لاتحس ولكنها موجودة بوجود أقوى وأغنى من وجود الأشياء. فهي فاعلة محركة بينما الاشياء والطبيعة جامدة محركة. وليس صحيحاً: ان القيم لا تعرف يقينا. بل ان لها علم لا يقل شأنه عن العلوم الطبيعية: له ضوابط ومنهجه، وله أحكامه وله تاريخ حافل طويل.

مسخ الغرب الوجود الى طبيعة محسوسة فحسب على أثر محاربته للكنيسة وما فرضه عليه تعسفاً من مبادئ لا هوتية مناهضة للعقل ومبادئ أخلاقية مناهضة للطبيعة. فأله الغرب الطبيعة تماماً كما ألهت الكنيسة نفسها. أما في التوحيد: فلا كنيسة نحاربها، ولا مناهضة للطبيعة نداويها بدائها. بل تعقل وايجابية وتقدير للطبيعة واحساس فطري بالحقائق المعنوية والقيم.

2- ان رغبات الانسان لأحوج ظواهر الطبيعة الى الانقياد بالقيم المعنوية لأنها أميلها الى الطغيان، وإفساد نفسها بنفسها كلما تعدت الحدود التي ترسمها لها القيم. لذلك، يوجب التوحيد علينا: ان نلجم رغباتنا بلجام القيم، وان لا نشبعها الا بعد التأكد من ان اشباعها المطلوب لا ينتهك قيمة ولا يتعدى حدا. فالشريعة ليست الا تطبيق القيم على الظواهر الطبيعية. وهي حقة وصادقة مرتين: مرة بالتنزيل ومرة بالفعل، فهي تعرف يقينا، ولذك هي خير معيار لكل شيء.

وليست الطبيعة شرا كما أدعت المسيحية، بل خيراً، فالشر لايكمن فيها، بل في استعمالها. لذلك بارك الله لنا فيها، وأوصانا بعدم الغلو فيها. وهذه هي فحوى الروحانية: الا ان يتجرد الانسان عن المادة، بل ان يطلبها ضمن قوانين وحدود مستمدة من ملكوت القيم. فليست السعادة الاسلامية سعادة اشباع رغبات، بل سعادة تحقيق الذات كلها من رغبة طبيعية، وشوق روحي. وهذا الانقياد للقيم لا ينطبق على الفرد فحسب، بل على الجماعة ايضا. فلا سلطان للجماعة على الفرد الا بحق، ولا علاقة بين الجماعة والجماعات الاخرى الا خاضعة لشريعة القيم. فلا حرب ولا سلام ولا استقرار ولا استئمان الا بحق. فرفاهية الجماعة حق، لكنها لا تحقق على حساب الجماعات الاخرى، ولا تنهب الطبيعة وتغتصب في سبيلها، لأن الله هو خالقها وسيدها، وهو سخرها لنا ضمن حدود القيم. فلا سيطرة للإنسان على الطبيعة ولا تنافس عليها مع أخيه الانسان. انما استثمار للطبيعة بتعاون الانسان مع أخيه الانسان وبالتواصي والتآخي والمعروف.

3- كيف يتصور التوحيد رجله؟

يتصور الغرب رجله كقلعة محاطة بسور ضخم وأبراج مدججة بالمدافع اذا جاءها خارجي، تصدرت له بالمدافع، فان استسلم لها فتحت له الباب وأدخلته الى حظيرتها، والا أفنته. ذلك ان قانونها لا ينبع الا من ذاتها. وذاتها هي رغباتها. تحقيقها - أي الرغبات - استقلال وسعادة؛ وتدخل الخارجي فيها اعتداء. والحرية هي تمتع هذه القلعة بانعزالها عن القلعات الاخرى الا ما انصاع اليها ووقع تحت سيطرتها سواء أكان طبيعة ام بشراً ام جماعة؟

ويتصور التوحيد رجله بأنه حصن مفتوح الجوانب على العام أجمع. يصدر أشعاعه في كل اتجاه. فمن انتفع به أصبح قريبا له. واجب التعاون معه ومساعدته كي يكون هو حصنا مشعا آخر. ومن لم ينتفع باشعاعه، ولايعزل بل لايحق الى ان ينتفع. ورجل التوحيد مقيد بالقيم الصادرة عن توحيده، يصوم ويفطر، يتزوج وينعم، يصلي ويجاهد، يناجي ربه ويبنى مدنا وصناعة، سعيد في الدنيا والآخرة، في ذاته وفي الآخرين، في بنى قومه وفي الغرباء عنه.

ويتصور الغرب رجله في علاقاته بغيره بأنها شر لازم، لأن الأصل في العلاقة استقلال الذات. لذلك يرى الغرب أن لابد للإنسان اذا ما فرضت عليه العلاقات مع الآخرين، ان يوازن بين مصلحته ومصالحهم المتضاربة. وهذه في فلسفة التربية السائدة في الغرب Education as adjustment. فعلى المربي ان يجعل المربى مختبرا لتعديات الاخرين كي يعدل استراتيجية في تحقيق رغباته بما يحميه من تلك التعديات ويعفيه من التصديات.

فالسلام عنده - كما هو عند كسينجر - ليس الا توازن القوى Balance of powers

بينما يتصور التوحيد رجله في علاقاته بغيره بأنه يتحرك وينفعل معهم، لا ليحدث لنفسه التعديلات اللازمة (لأن نفسه معدلة بالتوحيد) بلى لكي يحدث في غيره ايجابياً. فيقلب اوضاع الغير من جوع الى شبع، ومن جهل الى علم ومن عدم امن الى طمأنينة، ومن بشاعة الى جمال. وكذلك الحكومة الاسلامية فهي بخلاف الحكومة الليبرالية التي تؤثر اقل فأقل، تؤثر في رعاياها وفي الأمم الاخرى اكثر فأكثر - لكن الى الاحسن، الى الاحسن الذي يحقق القيم أكثر فأكثر. فمفخرة الغرب بالحكومة التي تحرص على عدم التدخل في شئون رعاياها - الا ماتعرض منها لعنف مادي ظاهر - تقابلها وتعلو عليها مفخرة التوحيد بالحكومة التي تحرص على التدخل لتحمل رعاياها الى الجنة على اكتافها - على حد تعبير عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأخيراً يتصور الغرب رجله بأنه المبدع الذي يصدر الجمال عن ذاته، فما الجمال الا تعبير الانسان عن ذاته، عن طبيعته ورغباته وطموحه وآلامه وشقائه وأحلامه، فهي الآلهة، كما عرفها الأغريق القدماء من قبل، وعرفها الغرب منذ عصر النهضة.

بينما يتصور التوحيد رجله بأنه المكتشف، لا المبدع. واكتشافه هو اكتشاف المعاني الكامنة في القيم، الأبعاد المترتبة في أوامر الله، السنن القائمة في المخلوقات كلها، وهو في اكتشافاته لها لايرجو الا لقاء ربه. فالرؤيا هي هدفه، لا ذاته. منها ينبع الجمال كله. ولها تصبو نفسه.
يهيج الغربي عند يقينه بأن لا اله الا هو، بطبيعته ورغباته فيندفع الى تحقيقها ليؤكد لنفسه انه ليس ما قالت عنه المسيحية، بل هو القادر علىكل شيء لأن كل ما فيه الهي. بهذه الرؤيا، يتفجر الغربي نشاطا وعزيمة للسطو على الدنيا. ويبقى هيجان الى ان يتحطم على صخرة التناقض، على أنغام فاجنر.
ويهيج المسلم الموحد عند يقينه بأن لا اله الا الله، وبأنه خليفة الله في الارض ليحقق ارادة الله وأمره في البشر أجمع، لا إكراها وقهرا وسطو بل اقناعاً وفصحا وتعاوناً وصبراً. فاذا غاب عنه هذا اليقين او غطته الغيوم، رقد وجمد وتدهور فأصبح فريسة لغيره.
الا أنه لن يتحطم أبدا. قد تمضى عليه القرون وهو في سات عميق لا يرى شمس التوحيد خلف الغشاوة السمكية فوق عينيه. ولكن سرعان ما تنقشع الغيوم، ويشرق التوحيد أمامه، فيعود له يقينه، وتعود له رؤياه. عندئذ ينفض رجل التوحيد من جديد، ويبعث خليفة لله في أرضه.
المصدر: د. اسماعيل راجي الفاروقي/ نحو وعي إسلامي معاصر

إسبانيا في عهد المسلمين

حاضرة متألقة وهمزة وصل حضارية

الموقع

تقع إسبانيا في جنوب غرب أوروبا، عاصمتها مدريد، تشمل الجزء الأكبر من شبـه جزيرة إيبريا، تجاورها البرتغال، وتفصلها جبال البرنس عن فرنسا، ومضيق جبل طارق عن المغرب جنوباً، أهم مدنها: برشلونة، بلنسية، سرقوسة، مرسية، قرطبـة، ولها ساحل طويل على البحـر المتوسط في الشرق والجنوب الشرقي.

لمحة تاريخية

خضعت إسبانيا في القرن الأول الميـلادي لحكم الإيبريين سكـان البـلاد القدمـاء، واكتسبوا حق المواطنيـة الرومانيـة، ولكنها ما لبثت أن خضعت في القرنين الخامس والسادس لحكم البرابرة الغزاة الذين شنوا عليها حرباً مدمرة .

في القرن العاشر، وبالتحـديد في سنة 711م. بدأ الفتح الاسلامي لإسبـانيا بقيادة طارق بن زياد الذي هزم ملك القوط في معركة "وادي بكة"، وشتت شمل رجاله، وفي السنة التالية جنّد موسى بن نصير بما جرى حتى جنّد جيشاً، والتحق بطارق في سنة 93هـ، وأكملا فتح إسبانيا التي أسمـاها المسلمون "الأندلس"، ولكن المسلمين تعرضـوا لنكسة في 115هـ، 732م حيث انهزموا في معركة "بواتيه"على يد ملك الفرنج شارل مارتل، وبذلك أوقف الزحف الاسلامي داخل القارة الأوروبية.

ظلت هذه البلاد خاضعة للخلافة الأموية 39 سنة، وبلغت ذروة مجدها في أيام عبد الرحمن المعروف بـ"الداخل"، ولكن عصر الأمجاد هذا تراجع حيث سادت صفوفهم الفرقة والانقسام، وأنهكتهم الصراعات، ما سهّل على جيوش قشتالة استعادة إسبانيا، وإخضاع غرناطة آخر معاقل المسلمين فيها في سنة 1492م. وهي السنة التي قـام كولومبوس فيها برحلته الاستكشافية إلى أميركا، ليرحل المسلمون عن"الأندلس"نهائياً، بعد أن أخضعوها لسلطانهم ثمانية قرون.

ترك المسلمون في الأندلس بصمات واضحة في مختلف الميادين، ماجعل منها حاضرة متألقة، وحلقة وصل حضاري بين الاسلام والغرب، وركيزة من الركائز الأساسية للنهضة الحديثة في أوروبا والعالم، ويشهد على ذلك ما خلّفوه من آثار، بلغت غاية في الدقة، والاتقان، والروعة، والجمالية.

ومن الجدير ذكره أن المسلمين في الأندلس لم يعيشوا نمطاً واحداً، بل طرأت على أحوالهم بعض التغيرات،حيث كان للظروف والعوامل التي أحاطت بهم دورها في إبراز سماتهم الحضارية، وانتاج مفاهيمهم السياسية والفكرية

ـ وبتعبير آخر ـ منظومتهم الحياتية، سواء كانوا من الذين فتحوها، أو الذين عاشوا فيها، أو الذين اعتنقوا الإسلام من الإسبان، أو الذين تبنوا بعض العادات والتقاليد الإسلامية.

الفاتحون

كانت أولى التسميات التي أطلقت على المسلمين في إسبانيا، هي تسمية «المسلمون الفاتحون» التي شملت كلّ المسلمين سواء الذين فتحوا شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال حالياً) سنة 92هـ (711م) سواء كانوا من البربر الذين حضروا من المغرب مع القائد العسكري طارق بن زياد، وكان عددهم سبعة آلاف جندي، أو من العرب الذين حضروا من المشرق العربي ودخلوا شبه الجزيرة الإيبيرية سنة (712م) بقيادة موسى بن نصير لمساعدة الفاتحين الأوائل ومتابعة تقدّمهم في الأراضي الإيبيرية.

حقق هؤلاء انجازات باهرة ، وأخضعوا لسيطرتهم مدن إسبانيا، باستثناء بعض المناطق الواقعة في الشمال، وتوغلوا في بعض الأراضي الفرنسية حتّى وصلوا إلى بواتييه، ولكن شارل مارتل أوقف تقدّمهم سنة (732م) في وقعة بلاط الشهداء التي خسرها المسلمون واستشهد فيها المجاهد الكبير عبد الرحمن الغافقي.

خضعت الأندلس منذ الفتح الإسلامي للأمويين، ومن ثُمَّ للعباسيين، ولم تلبث أن أصبحت إمارة مستقلة على يدي عبد الرحمن الأوّل "الداخل" الذي فر إليها من السلطة العباسية، واتخذ من قرطبة عاصمة لإمارته، الذي حاول أن يجعلها عاصمة على غرار دمشق، فبنى جامع قرطبة الذي استوحى فكرته من جامع بني أمية في دمشق.

وبعد انتهاء فترة الإمارة سنة 929م. تولى الحكم عبد الرحمن الثالث "الناصر" وبدأت معه فترة الخلافة التي دامت حتّى وفاة عبد الملك "ابن المنصور"سنة 1031م. وأدّت وفاته إلى تشتت الخلافة، وظهور ممالك الطوائف الذين حكموا مناطق متفرّقة من الأندلس.

المرابطون

شجعت حالة الانقسام والتشظي التي عصفت بالأندلس الجيوش الإسبانية في شمال إسبانيا على لم شملها وتكتيل قواها، فتمكنت بقيادة ملكها ألفونسو السادس من استرداد مدينة طليطلة من المسلمين سنة 1058م، التي شكّل سقوطها ضربة قوية للمسلمين، فاضطروا لطلب مساعدة من إخوانهم المرابطين في المغرب. فلبوا الدعوة وهاجموا الإسبان في منطقة قرب بداخوس (غرب إسبانيا) وانتصروا عليهم سنة 1086م في معركة الزلاقة. وتشجع قائد المرابطين واستولى على الحكم الإسلامي في الأندلس بشكلٍ كامل وبقي مسيطراً عليه حتّى عام 1148م. وقد أطلق اسم «المرابطين» على الأشخاص الذين التفوا حول العالم القيرواني الفقيه في الدِّين عبد الله بن ياسين الجذولي الذي أرسل معهم لتعليمهم شريعة ربّهم إذ أقام رباطاً وانقادوا له .

الموحّدون

تولى الموحِّدون حكم الأندلس بعد المرابطين ، وهم جماعة أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم، ودعوا لتصحيح الفهم الإسلامي، والعودة بالمسلمين إلى القرآن الكريم والسنّة النبوية بعد انصراف عددٍ من علماء المغرب بدراساتهم إلى المبالغة بالفقه المذهبي وفروعه، واستمروا في حكم الأندلس حتّى سنة 1232م.

اتخذوا من إشبيلية عاصمتهم لهم، وجهدوا لجعلها في مصاف العواصم الكبرى، فشيدوا فيها عدداً من المعالم الحضارية، التي كان من أهمها الخيرالدا أو (المئذنة) التي بدأ ببنائها أبو يعقوب يوسف سنة 1172م، وتابع ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور بناءها من بعده. وتعتبر الآن من أعظم الآثار الإسلامية في الأندلس ورمز مدينة أشبيلية. كما خلّف الموحِّدون في إشبيلية برج الذهب الذي أقيم لحراسة المدينة ومراقبة حركة الملاحة وللدفاع عنها من القشتاليين الذين سيطروا أخيراً على كثير من المواقع الأندلسية المهمّة، وبدا تفوّق قواتهم واضحاً نتيجة

لاتحادهم المتين واتفاقهم على توجيه ضربة للحكم الاسلامي في الأندلس. وإزاء حالة التحدي برزت بعض الشخصيات الإسلامية المهمّة مثل ابن الأحمر الذي استطاع بعد وفاة منافسه ابن هود تشكيل مملكة غرناطة التي كانت تضمُّ غرناطة ومالقة وبعض المناطق الجنوبية في الأندلس.وكان من أهم منجزاته العمرانية بناء قصر الحمراء العظيم الذي يُعتبر أهم أثر تركه العرب في إسبانيا، والذي ما زال باقياً حتّى الآن كتحفة تمجد دور العرب المسلمين وإبداعهم المعماري الباهر.

الأسالمة والمولّدون

دخل أهالي سكان البلاد الأصليين الاسلام بعد أن وجدوا في المسلمين كرم الأخلاق وحُسن المعاملة ، وكان ذلك بخلاف ما لاقوه من معاملة القوطيين لهم، فأطلق عليهم اسم الأسالمة، أو المسالِمَة في بعض الأحيان، كما كان يُطلق على أولاد الأسالمة اسم «المولّدون»، وقد عاش المسلمون والأسالمة إخواناً من دون أي تمييز. وكان قد برز من بين هؤلاء المسالمة عدد من الشخصيات المهمة كمهدي بن مسلم الذي تولى قضاء قرطبة أيام والي الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي، وأبا محمَّد علي بن أحمد بن سعيد بن سعيد حزم، العالم الموسوعي والكاتب المشهور الذيكما يقال يعود في أصوله إلى المسيحية.

الصقالبة

أمّا الصقالبة فقد برزت آراء مختلفة عن أصلهم، أكثرها رواجاً تشير إلى أنَّه كان يؤتى بهم من الدول الأوروبية، وخصوصاً من بلاد السلاف شرق أوروبا، سلط الاهتمام على البارزين منهم لتربيتهم تربية توافق ميولهم.

في البداية كانوا يعملون خدماً ثُمَّ لم يلبث أن تحسنت أوضاعهم شيئاً فشيئاً، حيث ازداد عددهم في عهد عبد الرحمن الناصر، وتولوا وظائف حربية وإدارية في عهد المنصور بن أبي عامر، كما برز منهم بعض المفكّرين والأدباء، ووصلوا إلى درجة عالية من القيادة، فحكموا مملكة بلنسية في فترة الطوائف وبقوا في الحكم فترة من الزمن دامت حتّى سنة 411هـ 1021م.

المدجّنون

وبعد استرداد المسيحيين لبعض المناطق الواقعة في شمال شرقي شبه الجزيرة الإيبيرية وبالضبط إقليمي كاتولونيا وأراغون، بقي بعض المسلمين الذين لم يهاجروا بعد خسارة المسلمين لهذين الإقليمين تحت السيطرة المسيحية فسمّوا بـ"المدجّنين". وازداد عددهم ازدياداً واضحاً بعد سقوط مدينة طليطلة سنة 1058م، وبلنسية سنة 1094م ومورسيا سنة 1266م. وقد لقي هؤلاء الكثير من العنف وسوء المعاملة من القشتاليين، ومُنعوا من التكلّم باللغة العربية، فاضطروا للبحث عن لغة خاصّة بهم، وكانت "الخميادو" التي استخدموا فيها الكلمات العربية وكتبوها بحروف إسبانية،كما شيدوا العمران، وأبدعوا في الفنون، ولا يزال حتّى الآن الأثر الإسلامي واضحاً في الكنائس التي بُنيت في عهدهم، كما لا تزال بعض فنونهم التقليدية معروضة في متاحف الآثار في مدريد وطليطلة وغرناطة وقرطبة.

الموريسكيون

بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، وانتهاء حكم المسلمين للأندلس بقي كثيرٌ من المسلمين تحت حكم السلطات الإسبانية التي أجبرتهم على التنصر بعد أعوام قليلة من سيطرتهم عليها، وتحوّل العرب المسلمون إلى مسيحيين كاثوليك، وسمّوا بـ"الموريسكيين" أو "المسلمين الصغار" أو "العرب المتنصرين"، وتابعوا استعمال لغة "الخميادو" التي كان يتداولها المدجّنون، واستمرت هذه اللغة حتّى مطلع القرن الثامن عشر. وظهر أدب خاص بهم دعي بالأدب الموريسكي. ولكن الموريسكيين لم يقفوا موقف المتفرج إزاء وضعهم الصعب، خاصة بعد نقض السلطات الاسبانية بنود معاهدة تسليم غرناطة لإسبانيا والتي كانت تشمل 67 شرطاً تضمن الحياة العادية للمسلمين. فقاموا بتمرّدات ضدَّ المسيحيين، ومن أهمها التمرّد الذي حصل في سنة 1500م في بلدة غواديس التي

كانت جزءاً من مملكة بني نصر في غرناطة منذ سنة 1238م. ولكن تمسك الموريسكيون بوجودهم وعاداتهم وتقاليدهم الإسلامية، ومقاومتهم لكل المحاولات الهادفة للتخلي عنها، ولكن هذه المحاولات لقيت مقاومة أدت إلى ظهور محاكم التفتيش ضدَّ كلّ من تبدو عليه أيّة صلة بالإسلام أو يُضبط حاملاً أيّة شارة من شاراته أو مؤدياً لشعائره أو ممارساً لعاداته. وعندما لم تستطع السلطات الإسبانية فرض ما تريده عليهم قررت التخلّص منهم بعد إلحاح شديد من الكنيسة، وصدر المرسوم الذي نصّ على نفيهم من أراضيها سنة 1609م بحجّة التآمر على الحكم والاتصال مع عناصر من خارج البلاد، فرُحِّلوا إلى تونس والجزائر والمغرب، وأسسوا قرى ومدناً أهمها قرية تستور. وبرز عددٌ من الموريسكيين اللامعين منهم على سبيل المثال الكاتب أحمد بن القاسم الفقيه ابن الشيخ الحجري وكان يُعرف بالشهاب الحجري وكانت له اليد الطولى في الترجمة من العربية إلى الإسبانية وبالعكس وأهم كتاب له هو "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب".

الموروس

أمّا الموروس فهي جمع لكلمة مورو التي تعني العربي أو المسلم الذي أتى من المغرب، وجاء هذا الاسم من اسم مراكش في المغرب. ويستعمل هذا اللقب بشكل خاطىء من قبل كثير من الإسبان إذ يُطلقون لفظ مورو على كلّ عربي موجود في إسبانيا أو خارجها سواء كان من المغرب أو من دول الشرق حتّى لو كان مسيحياً، ويستخدمون هذه التسمية للدلالة على شخص يقوم بعمل غير محبب عندهم، ولا يُنادون به العربي وجهاً لوجه من دون معرفة درجة تقبله له.

الموروس كورتادوس

أما المسلمين الذين كانوا يشتغلون بالزراعة ورعاية الماشية، ولم يُسمح بتطبيق قانون الإبعاد عليهم لأنهم كانوا عبيداً لأصحابهم، فلقبوا بالموروس كورتادوس أو العرب المبتورين إن صحت الترجمة. وتابعت محاكم التفتيش مهماتها حتّى القرن الثامن عشر، والذي كان بداية العكوف بشكل جزئي عن ملاحقة التظاهر بالإسلام أو التأييد له. وقد تعرض هذا القانون في تللك الترة لانتقاد شديد من قبل بعض المفكرين والأدباء، وفي مقدمة هؤلاء الأديب خوفياندس، ما أدّى في النهاية إلى إصدار القرار النهائي بإلغاء محاكم التفتيش عام 1235هـ/ 1820م.

المستعربون

لم ينته أثر المسلمين وفضلهم على الإسبان بعد خروجهم منها، بل ما زالت بصماتهم في مجالات الحياة كافة شواهد أبدية على عظمتهم. وبرز كثير من المستعربين أو النصارى المعاصرين أو الأندلسيين المسيحيين، وغالبيتهم من المسيحيين الذين اختلطوا بالأندلسيين وتبنوا بعض العادات الإسلامية وتعلّموا اللغة العربية، وظلّوا في المناطق التي كان يحكمها العرب، وعاشوا في بيوت لها مخطط البيوت العربية.

تعتبر حركة الاستعراب الإسبانية من أقدم أنواع الاستشراق في الغرب كنتيجة طبيعية لحكم المسلمين الطويل لإسبانيا منذ بداية القرن الثامن الميلادي، وكانت دراسات المستعربين الإسبان للمواضيع العربية أكثر عمقاً وتأثراً من دراسات المستشرقين الغربيين للعالمين العربي والإسلامي. ولم تقتصر اهتمامات الاسبان في دراسة الاسلام بل نرى الكثير من المستعربين الإسبان الذين سخّروا كثيراً من وقتهم لتعلّم اللغة العربية لكي يُتاح لهم التعرّف جيّداً على حضارة العرب في إسبانيا وعلى تاريخ الإسلام، وليكون اتصالهم بهم أشدّ صلة، ومعلوماتهم أكثر دقة، ويأتي في مقدمة هؤلاء المستعربين أميليو غارثيا غوميز الذي لعب دوراً كبيراً في التعريف بالحضارة العربية الإسلامية في الأندلس من خلال أبحاثه ومحاضراته المتنوّعة.

المسلمون الذين حنّوا إلى مجد أجدادهم

على رغم ظهور بعض الجاليات والعائلات من أصول إسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلاَّ أنَّ دورها وعددها كان ضئيلاً. وما زاد في أعدادهم، تلك السمعة الطيبة التي انتشرت في بداية النصف الثاني من

القرن العشرين عن إسبانيا كواحدة من أجمل بلاد العالم، لما تتمتع به من طقس لطيف وطبيعة خلابة وشواطئ جميلة وآثار معمارية عريقة، إضافة لما يتميّز به شعبها من حسن المعاشرة وكرم الضيافة وسهولة المخالطة... وهذا ما شجع السياح والطلاب في كثير من دول العالم على زيارتها للدراسة أو للإقامة فيها وخصوصاً العرب والمسلمين الذين حنّوا إلى بلاد أجدادهم وإلى فترة من تاريخهم المشرق، فيقيم قسم منهم في مدريد العاصمة الإسبانية التي يعود الفضل في بنائها إلى الأمير الأندلسي محمَّد بن عبد الرحمن بن الحكم، وقسم آخر يقيم في برشلونة ثانية المدن الإسبانية وأهمها اقتصادياً. أمّا القسم الأكبر فاستقر في المدن الأندلسية قرطبة وإشبيلية وغرناطة وبلنسية ومارربيا، وبنوا فيها القصور والفيلات الفخمة وشيدوا المساجد والمراكز الإسلامية وشجعوا جمعية الصداقة العربية ـ الإسبانية، كما عملوا على تشكيل النوادي العربية ـ الإسبانية، وجمعية الصحافيين، بهدف زيادة روابط الجاليات العربية بأوطانها، والإكثار من نشاطاتها في المناسبات الدينية والعربية ووضع الحلول المناسبة لأولاد الجاليات العربية الذين يعيشون في بيئة غربية مغايرة للبيئة العربية التي عاش فيها آباؤهم.

وعند التكلّم عن المسلمين في إسبانيا، يجب عدم نسيان المسلمين المقيمين في مدينتي سبته ومليلة المحتلتين من قبل الإسبان، ويشكلون نسبة جيّدة من عدد المسلمين في كامل إسبانيا الذي يُقدّر بحوالي 600 ألف مسلم، منهم 200 ألف شخص ولدوا وهم يحملون الجنسية الإسبانية، أو لأبوين مسلمين، أو اعتنقوا الإسلام خلال السنوات العشرين الأخيرة لأسباب مختلفة، مثل البحث عن أصولهم الأندلسية، أو التعب من الدين الكاثوليكي، أو لأسباب مالية. هذا وتختلف أعمال المسلمين في إسبانيا بحسب وضعهم العلمي والاقتصادي، فبعضهم يعمل كرجال أعمال أو أطباء أو أصحاب مطاعم، بينما يعمل البعض الآخر، خصوصاً المسلمين المغاربة، بأعمال ذات مجهود عضلي نادراً ما يقوم بها الإسبان.

ويواجه المسلمون في إسبانيا، نتيجة الظروف التي تمرّ بها تلك البلاد، مشكلات متنوّعة، سواء لسوء تعامل بعض الإسبان معهم، وخصوصاً المتطرفين الذين يرون فيهم منافسين لهم ولأولادهم عند البحث عن عمل، أو لإهمالهم من قبل المجتمع الإسباني، أو لطبيعة حياتهم، وخصوصاً في ما يتعلّق بأسمائهم وصعوبة لفظها من قبل الإسبان.